محاضرات في علوم القرآن

المحاضرة السابعة

القصة في القرآن الكريم

القصة في اللغة:

قال الزمخشري: " قصصت أثره، وقصصته: اتبعته قصصاً, [وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ] [القصص: 11], واقتصصته وتقصّصته، وخرجت في أثر فلان قصصاً, [فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا] [الكهف: 64], وهو يقرو مقصّه: يتّبع أثره ... وقصّ عليه الحديث والرؤيا، واقتصّه. وتقصّصت كلام فلان، وله قصّة عجيبة، وقصص حسن، وقصيصة, وقصص, وقصائص, وأقاصيص. قال هدبة بن خشرم:

فقصوا عليه ذنبنا وتجاوزوا ... ذنوبهم عند القصيصة والأثر

أي عند القصّة والحكاية. ورفع قصّته إلى السلطان. والقصّاص يقصّون على الناس ما يرقّ قلوبهم "[1].

وقال أبو هلال العسكري:

" الفرق بين القصص والحديث: أن القصص ما كان طويلا من الأحاديث, متحدثا به عن سلف, ومنه قوله تعالى: [نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ] [يوسف: 3], وقال: [نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ] [هود: 120], ولا يقال: لله قاص, لأن الوصف بذلك قد صار علما لمن يتخذ القصص صناعة، وأصل القصص في العربية: إتباع الشيء بالشيء, ومنه قوله تعالى: [وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ] [القصص: 11], وسمي الخبر الطويل: (قصصا) لأن بعضه يتبع بعضا حتى يطول, وإذا استطال السامع الحديث, قال: هذا قصص, والحديث يكون عمن سلف, وعمن حضر, ويكون طويلا وقصيرا، ويجوز أن يقال: القصص: هو الخبر عن الأمور التي يتلو بعضها بعضا، والحديث يكون عن ذلك وعن غيره، والقص: قطع يستطيل, ويتبع بعضه بعضا, مثل: قص الثوب بالمقص, وقص الجناح وما أشبه ذلك، وهذه قصة الرجل, يعني: الخبر عن مجموع أمره, وسميت قصة: لأنها يتبع بعضها بعضا حتى تحتوي على جميع أمره "[2].

---

[1] ــ أساس البلاغة, أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري, مادة (ق ص ص).

[2] ــ الفروق اللغوية, أبو هلال العسكري, (المسألة: 1732, الفرق بين القصص والحديث).

مفهوم القصة اصطلاحاً:

عرفت القصة الفنية بأنها: " هي عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب، أو تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته، أو بسط لعاطفة اختلجت في صدره فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهان القراء محاولاً أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه "[1].

ثالثاً: عناصر القصة عامة:

على الرغم من أن غرض القصة ديني محض، فإنا نستطيع أن نجد بعض العناصر البارزة قائمة في معظم القصص التي وردت في الكتاب الكريم، منها عنصر الشخصية، والحوار والصراع، والتصميم، والزمان والمكان في القصة ولو حاولت تحليل كل من هذه العناصر لألفيت تنوعاً في رسم كل منها، وقد يصل هذا النوع إلى حد التباين البعيد.

فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها؛ ظاهر منها نزول التقدمة مع القصة والتعقيب.

أولاً: الشخصية:

إذا نظرنا في القصة القرآنية نظرة مدققة فإننا نجد أنفسنا أمام عدد كبير من الشخصيات، منها ما ينتمي إلى عالم الغيب ومنها ما ينتمي إلى عالم الشهادة، هذا بالإضافة إلى الحضور الإلهي الذي يتجلى في حوار الله عز وجل مع بعض عباده.

إن تنوع شخصيات القصة القرآنية وامتدادها ما بين عالمي الغيب والشهادة يجعلنا نقول: إن الله عز وجل قد جعل القصة القرآنية مجلى لهذا الكون بما فيه من مخلوقات خفية وظاهرة، مؤمنة وكافرة، مما يجعل من يراها يستشرف آفاق الوجود كله.

وقد ترد بصورة إنسانية عادية وقد تكون شخصية مثالية، وقد تشتمل الوجهين الإنساني العادي والمثالي في آن واحد.

ومهما تك صورة هذه الشخصية فإنها بطبيعة الحال هي التي تحرك الأحداث وتضطرب بها، أو تعدم الأحداث نفسها بتحريك الشخصيات، أو تساوق وتتوازن، فلا تطغي الشخصية على الحدث، ولا يطغي الحدث على الشخصية.

---

[1] ــ بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق, الطبعة الثالثة، 1979م، ص215.

والنظر في شخصيات القصة القرآنية يكشف عن عدد من الظواهر، منها هذا التلوين في ذكر أسماء بعض الشخصيات وإغفال بعضها الآخر، ويلاحظ أن أسماء الأنبياء أكثر ذكراً من أسماء رؤوس الكفر، ولعل في هذا تكريماً لهذا الرهط الكريم الذي حمل أعباء الدعوة إلى الله.

أما رؤوس الكفر الذين ذكروا مثل فرعون وهامان وقارون ففي ذكرهم تشهير بهم واستظهار للعنان عليهم إلى يوم الدين، ليكونوا نماذج في السوء، ويكون في عاقبتهم عبرة.

كذلك إن الأسماء لم تكن مقصودة لذاتها في القصة القرآنية إلا إذا كان في الذكر زيادة عبر تذكر أسماء الأقوام الذين حل بهم العذاب، وبخاصة من كان للعرب بهم عهد أو قرب ديار كمدين والحجر وديار لوط.

والجانب الأهم في الشخصيات هو الموقف الذي تتخذه والمصير الذي تؤول إليه.

ثانياً: الحوار:

أما العنصر الآخر وهو الحوار فقد جاء عنه في كتاب التعبير الفني في القرآن: (فهو محرك للأحداث، ومصدر للشخصيات ومبلغ إلى الصراع ومؤدي إلى الهدف، ومظهر للمغزى.

ولقد كان في القصة على صور وأشكال، فقد يكون على صورة حوار ذاتي بين الشخص وعقله أو قلبه كما في قصة إبراهيم ʋ، وهو ينظر إلى الكواكب والقمر والشمس ويفتش عن إلهه)[1].

وقد يكون بين شخصين كما في حوار إبراهيم مع أبيه أو قومه، وقد يكون بين الشخصية وعنصر آخر كالجن، أو الطير أو الشيطان، وقد يكون بين الخالق والمخلوق أو النبي وقومه وهكذا.

والحوار قد يكون مباشراً وقد يكون غير مباشر أحياناً، والمتسلسل المتناسق الذي لا يترك أمراً إلا وتحدث به المنقطع الذي لا يترك بعض الفجوات للقارئ أو السامع ليملأها من طبيعة تفكيره كانت تجري القصة القرآنية.

وهنالك ملاحظات أساسية في طبيعة الحوار بمجمله وعلى مختلف ضروبه هي أنه لا يوضع على ألسنة الشخصيات، وإنما ينطلق منها انطلاقاً طبيعياً أو تلقائياً دون أن يحس القارئ بشيء من آثار الصنعة أو التكلف.

([1]) بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، ص224.

أما أسلوب الحوار فهو أسلوب القرآن ذاته إذ ينخفض من ناحية ويسمو في أخرى تبعاً لاختلاف الظروف والشخصيات ومستوى الأداء عند الكتاب العاديين من البشر.

ثالثاً: الصراع:

هو غالباً ما يكون في القصة القرآنية منسجماً مع المغزى العام للقصة وهو الهداية والدعوة إلى الإيمان، وإنه لصراع دائم بين عنصر الخير والشر، أو الحق والباطل، أو الكفر والإيمان. ويكاد الصراع أن يكون واحداً، إن لم يكن في صورته الخارجية فهو في هدفه وغايته في جميع القصص.

وإذا كان للصراع في القصة القرآنية من أثر فإنه يظهر في ربط الأحداث من جهة والشخصيات من جهة أخرى، والحوار من جهة ثالثة من جميع جهاتها ويستولي عليها ثم يمضي بها إلى غايته المرسومة.

الزمان والمكان:

لا نجد في قصص القرآن الكريم تحديداً تاريخياً لزمن وقوع الأحداث، وإذا كنا لا نجد في القصة تحديداً لموقعها في مسار التاريخ فإننا نرى فيها صورة أخرى للزمن، وهو الزمن الداخلي على المدة التي استغرقها وقوع الحدث، وذلك لارتباطه بالغاية من القصة، وكشفه عن موطن العبرة فيها.

وقد لا يذكر الزمن باليوم أو السنة، وإنما دلالات الأفعال وظروف الزمان، ومن الأمثلة على ذلك قصة أصحاب الجنة الذين نراهم وهم يخططون لصرمها مصبحين وهي كلمة توحي بالزمن الذي وقع فيه التخطيط وهو الليل.

وهذا يعني أن ما يذكر من الزمان أو يدل عليه يتضامن مع الأحداث والأفكار ليزيد في تأثير القصة بما يوحيه من قصر المدة أو طولها، أو كون الزمن المذكور مهلة يعقبها العذاب أو الحدث الفاصل في القصة.

منهج القصة في القرآن الكريم :

يقول الدكتور نور الدين عتر: لما كانت القصة في القرآن تهدف إلى مقاصد دينية وإيمانية كانت طريقة القص في القرآن متميزة عن المألوف في هذا الفن لكي يتلاءم أسلوب القصة مع الوفاء بحق الغرض الذي سيقت لأجله ومن ابرز سمات المنهج القرآني ما يلي:

- القصة في القرآن لا تأتي بتمامها دفعة واحدة بل تأتي حسب الغرض والهدف الذي تسرد من أجله القصة.

- استخراج التوجيهات والعظات والدروس التي تأتي بها القصة, كما جاء في قصة لقمان.
- التكرار: إن منهج القصة في القرآن يختلف تماما عن منهج القصة العادية فهناك خصائص معينة تلتزمها القصة في القرآن ومنها التكرار ويقسم إلى قسمين:

***** تكرار القصة:**

أي أن تأتي قصة نبي من الأنبياء في أكثر من مكان, وهذا التكرار ليس في هيكل القصة, وإنما يكون تكرارا ملائما للغرض الذي اقتضى الاستشهاد فيه, مثلا قصة إبراهيم عليه السلام وردت في القرآن في عشرين موضعا, ولكل موضع عبر ودروس, وكذلك قصة موسى مع فرعون وردت في كثير من سور القرآن الكريم.

***** تكرار العبارات والجمل:**

وهذا أسلوب تميز فيه القرآن الكريم, وهو إن دل على شيء فهو يدل على عظمة هذا الخالق, وإعجاز القرآن الذي بهر العرب, على الرغم من قوة بلاغتهم, كما أن التكرار لم يأت هكذا, وإنما جاء لقصد محدد دقيق.

الخصائص الفنية :

كما حددها الدكتور نور الدين عتر:

أولا : تنوع طريقة العرض:

يوجد في القرآن أربع طرائق لعرض القصة :

1. ذكر ملخص القصة, ثم الدخول في التفاصيل, يسرد القصة من أولها إلى آخرها ,كما جاء في قصة أهل الكهف.
2. ذكر عاقبة القصة ومغزاها, ثم الدخول والابتداء بالقصة, مثل قصة يوسف عليه السلام, بدأت بالرؤية, ثم تبدأ القصة بعد ذلك حتى النهاية.
3. ذكر القصة مباشرة, وبدون مقدمة أو تلخيص, ومثال ذلك قصة مريم عند مولد عيسى عليه السلام, وقصة سليمان مع النمل, والهدهد, وبلقيس.
4. تحويل القصة إلى تمثيلية, تبدأ بالعرض, ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بواسطة أبطالها, ومثال ذلك: قصة إبراهيم وإسماعيل في بنائهما للكعبة.

ثانيا : تنوع طرق المفاجأة :

1. تكتم القصة سر المفاجأة عن البطل والقارئ حتى تكشف لهم معاً في آن واحد, مثال ذلك: قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح في سورة الكهف.

2. ومرة تكشف السر للقارئ, وتترك أبطال القصة في عماية, وغالبا ما يكون هذا في موضع السخرية, كما في قصة أصحاب الجنة.

3. ومرة تكشف السر للقارئ, فهو خاف على البطل في موضع, وخاف على القارئ والبطل في موضع آخر من القصة الواحدة, مثال ذلك قصة عرش بلقيس الذي احضر في غمضة عين.

4. وقد لا يكون هناك سر, بل تواجه المفاجأة البطل والقارئ في آن واحد, مثل قصة المخاض لمريم العذراء.

خصائص القَصَص القرآنيّ:

يتميز القَصَص القرآنيّ عن غيره من سائر القصص بخصائص يعلو بها جلالةً وقداسةً, ويزداد بها بلاغة وإعجازًا, ويعظم بها أهمية وتأثيرًا, وبهذه الخصائص استحق أن يُوسَم بأحسن القصص في قوله تعالى: [نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ] [وسف: 3]., فمن تلك الخصائص:

1 ــ التكرار الهادف المعجز.

2 ــ الواقعية التاريخية: ونعني بها أن كل ما في قَصص القرآن الكريم من أخبار الأولين هي حقائق تاريخية صادقة لا يصادمها عقل, ولا يخالفها نقل, وسواءٌ في تلك المصداقية ما كان من أخبار الأنبياء مع أقوامهم, وما كان من قبيل المعجزات وخوارق العادات, كانفلاق البحر وكلام الهدهد والنملة, وليس فيها أي نوع من التناقض أو الاختراع, ولا أي شكل من أشكال الخيال أو التصوير المجرد عن الحقيقة, ولا أي صورة من صور الرمز أو الإشارة.

3 ــ الشمولية المطلقة: فقصص القرآن الكريم شاملة من عدة جهات:

أ ــ في حصر النفوس المخاطبة وطِباعها ووجهاتها ومكامن شعورها.

ب ــ في تنويع الأساليب والوسائل الملائمة لكل جنس وطبقة ولون.

ج ــ ومن حيث الزمن؛ فالقصة تتحدث عن الماضي والحاضر والمستقبل.

د ــ ومن حيث شمولية موضوعاتها ؛ فكما أنك تجد في موضوعات القرآن الكريم شمولاً. فكذلك تجد في قصص القرآن الكريم شمولاً لكل تلك الموضوعات, من عقائد وعبادات وأخلاق وآداب اجتماعية واقتصادية وسلطانية وغير ذلك.

4ــ كونها هادفة: فالغاية الأولى من قصص القرآن الكريم هي تأملها وأخذ العبرة منها وتصحيح العقائد والأخلاق, حتى يصلح الفرد والمجتمع, وليست الغاية قاصرةً على إمتاع النفوس بسماع قصص مسليّة أو بطولات خيالية, أو إظهارَ براعة أدبية مجردة عن هدف الإصلاح ـ كما هو الحال في عامة الفنِّ القصصي ـ وليست الغاية أيضا سردًا تاريخيًا جافا, كما هي مهمة المؤرخين, فالقرآن الكريم بكل ما فيه من قصص وغيرها هو كتاب هداية وعبرة بالدرجة الأولى, قال تعالى: [لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] [يوسف: 111].

5 ــ الإعجاز القصصي: إن القصة تمثل جزءًا كبيرًا من القرآن الكريم , وبالتالي فهي كسائر القرآن في كل خصائصه وسِمَاته العامة, ومن ذلك كونه معجزًا؛ فوجوه الإعجاز التي تجدها في سائر القرآن الكريم تجدها في القصص, لكن القصص يزيد على ذلك بوجوه أخرى من الإعجاز تميزه عن غيره.